



جامعة تكريت

كلية التربية للعلوم الإنسانية

قسم العلوم التربوية والنفسية

الدراسة الأولية / المرحلة الثالثة

مادة علم النفس المعرفي / المرحلة الثالثة / الدراسة الأولية

محاضرة الكترونية بعنوان علم اللغة المعرفي

اسم التدريسي: أ.م.د. اسلم حسام طه

العام الدراسي (٢٠٢٥ – ٢٠٢٦)

يعد علم اللغة المعرفي من العلوم اللغوية الحديثة نسبياً، ويرتبط ارتباطاً وثيقاً بالدراسات النفسية المعرفية التي تهتم بعمل الدماغ ومتابعة العمليات العقلية المختلفة التي تتصل بالمعرفة الإنسانية والإدراك بشكل عام.

وأصحاب هذا الاتجاه في دراسة اللغة، على اختلاف منطلقاتهم، لا يقبلون القول باستقلالية النظام اللغوي، فهم يرون أن لا انفصال بين المعرفة اللغوية والتفكير بشكل عام (١)، وعليه فهم يعارضون ما يذهب إليه تشومسكي وأتباعه من أن "تطور اللغة عند الطفل يأتي كلياً من نموذج نحوي مستقل في الدماغ يبنى بالكامل بتعليمات خاصة به" (٢).

فالمعرفة اللغوية، كما يرى هؤلاء، جزء من الإدراك العقلي الذي لا يميز بين المعلومات اللغوية والمعلومات غير اللغوية، والذي يتأثر، وبقوة، بمحيط الإنسان وتجاربه اليومية المختلفة، فالعمليات العقلية التي تتحكم في التفكير الإنساني وفي تكوين المعرفة بشكل عام هي نفسها التي تتحكم في المعرفة اللغوية وفي تشكيل البنية اللغوية العامة بمستوياتها المختلفة، فهناك "مستوى واحد تعالج فيه المعلومات اللغوية والمعلومات الأخرى الحركية والبصرية والسمعية غير اللغوية للوصول إلى مجموعة من المعلومات لا ينبغي التمييز داخلها بين ما هو لغوي وما هو غير لغوي" (١) وهو المستوى الذي يطلق عليه مستوى البنية التصورية Conceptual structure (٢).

واللغة لا تنفصل عندهم عن الخبرة الإنسانية التي تشكلها التجربة والتي تؤثر في الطريقة التي ندرك بها الأشياء ونصوغ بها مفاهيمنا المختلفة، والتعبير عن الأشياء والمفاهيم، وهو بعد لغوي، يتأثر، بلا شك، بكيفية إدراكها، فاللغة ليست مستقلة أو مغلقة على ذاتها ولا يمكن وصف نظامها الداخلي وصوغ قواعده وقوانينه بمعزل من البنية التصورية أو المعرفية التي تؤسس لمبادئ عامة في الخبرة البشرية تؤثر مباشرة في بنية المبادئ اللغوية المختلفة.

والسؤال الذي تتمركز حوله الدراسات في هذا الحقل الجديد هو: أيهما أولى بالبحث: أهو الظاهرة المدروسة (اللغة مثلاً) أم كيف يفهم العقل البشري هذه الظاهرة؟ وهل يمكن لأي ظاهرة أن تنفصل عن آليات إدراكها؟ وهل تؤثر طبيعة الشيء المدرك (لغوي، سمعي، بصري، لمسي...) في تشكيل آليات إدراك خاصة به في الدماغ البشري أم أنها آليات واحدة يطبقها الدماغ على الأشياء المدركة على اختلاف طبيعتها؟ وبعبارة أخرى هل الاختلاف في الإدراك اختلاف نوعي تفرضه طبيعة الشيء المدرك أم هي آليات لا يؤثر فيها تغيير الظواهر المدركة، لأنها تنطلق من بنية معرفية واحدة؟

ويخالف أصحاب هذا الاتجاه النظرة التقليدية في الدراسات اللغوية الغربية المنبثقة من الفلسفة الأرسطية التي تهتمش الخيال Imagination، ولا تضع له دوراً أساسياً في عمليات التفكير والإدراك، فالدراسات التقليدية في اللغة والفلسفة وعلم

النفس، وهي ما يطلق عليها هؤلاء مصطلح Objectivism، ترى أن هناك بنية موضوعية للحقيقة وللعالم الخارجي مستقلة عن معتقدات البشر، وأنه لا بد لكي نصف هذه البنية أن نستعمل التفكير الموضوعي المنطقي الذي ليس للخيال فيه أثر (١).

فهناك بعض المسلمات المتجذرة في الفكر الإنساني وجهت الدراسات التقليدية لاقتراح كثير من العوامل التي لا تنصف بالموضوعية ولا العلمية مثل الخيال والعاطفة وغيرها، فظهر عندنا بعض الثنائيات من مثل: العقل والجسد، التفكير والخيال، العلم والفن، الإدراك والعاطفة، يتصف العنصر الأول منها بالموضوعية التي تحرص عليها الدراسات التقليدية، ويتصف الثاني منها بالذاتية التي تسعى هذه الدراسات للتخلص منها واجتنابها قدر المستطاع (٢).

ولكن الكثير ممن يعملون في حقل علم اللغة المعرفي يرون أننا يجب أن نتجاوز هذه الثنائيات لكي نغني البحث اللغوي والنفسي والعلمي بشكل عام، فالخيال يعد قدرة إنسانية مهمة ذات أثر فاعل وعميق في تشكيل الفهم البشري وفي بناء المعرفة الإنسانية(٣)، فهو يمثل آلية أساسية من الآليات التي يلجأ إليها العقل البشري لفهم الأشياء من حوله، ولنقل هذا الفهم إلى الآخرين.

والاستعارة، مثلاً، التي تعد في الدراسات اللغوية التقليدية، خاصية لغوية لا تأثير لها في التفكير أو السلوك "حاضرة في كل مجالات حياتنا اليومية، فهي ليست مقتصرة على اللغة وهي ليست منبثقة من طبيعة النظام اللغوي، بل إنها توجد في تفكيرنا وفي الأعمال التي نقوم بها أيضاً، فالنسق التصوري العادي الذي يُسير تفكيرنا وسلوكنا له طبيعة استعارية بالأساس"(١)، والاستعارات اللغوية "ليست ممكنة إلا لأن هناك استعارات في النسق التصوري لكل منا"(٢).

فالاستعارات "ليست تزييناً للكلام وليست آليات اتصالية لوصف موضوعات يصعب وصفها باللغة الحرفية، ولكنها تعكس آليات عقلية يستعملها الناس لتمكنهم من تصور مجالات مجردة أو غامضة في المعرفة الإنسانية من مثل الزمن والسببية والاتجاهات المكانية والأفكار والعواطف باستخدامهم تعبيرات من مجالات معرفية محددة ومألوفة عندهم"(٣).

إن رصد العبارات اللغوية التي يتبادلها الناس في مجتمع لغوي معين يشير إلى أنساق تصويرية متجذرة في أذهان هؤلاء الناس يصدر عنهم ويتحدثون بها ويفهمونها بشكل تلقائي آلي، وهي تعكس آليات ذهنية يقوم بها الدماغ لفهم الأحداث والمواقف والأشياء التي تنقل باللغة، وقد وجد الباحثون أن الاستعارة من أهم الآليات الذهنية التي تؤسس للنسق التصوري الإنساني، ونسوق لتمثيل وتوضيح هذا البعد في التحليل اللغوي- النفسي، مثالين من أكثر الأمثلة دوراً في هذا السياق(٤):

أولاً: ما يتعلق بتصورنا عن "الجدال" وبالاستعارة التصويرية "الجدال: حرب" التي ينبثق منها عبارات لغوية كثيرة نستخدمها يومياً مثل:

١- لا يمكن أن تدافع عن ادعاءاتك.

٢- لقد هاجم كل نقاط القوة في استدلالتي.

٣- أصابت انتقاداته الهدف.

ثانياً: ما يتعلق بتصورنا عن "الوقت" وبالاستعارة التصويرية "الوقت: مال" التي ينبثق عنها عبارات لغوية كثيرة نستخدمها يومياً مثل:

١- إنك تجعلني أضيع وقتي.

٢- هذه العملية ستوفر عليك الوقت.

٣- كفني إصلاح هذه العجلة ساعة كاملة.

ويتبنى هؤلاء وجهة النظر التجريبية Experiential View التي تعتمد على أدلة منبثقة من التجربة والملاحظة وتبتعد عن الاعتبار النظرية الخالصة، وتأتي هذه الأدلة في سياق العديد من الدراسات في مجالات علمية مختلفة، لكنها تشترك جميعاً باهتمامها بدراسة المعنى والتفكير.

وقد كانت هناك ظواهر وموضوعات مختلفة نالت اهتمام الباحثين في هذا المجال وكانت بمثابة تحد للفكر اللغوي التقليدي بما قدمت من أدلة تجريبية تسأل الكثير من المسلمات العلمية التي تعارف عليها الدارسون لقرون طويلة(١)، من مثل التصنيف، النظام الاستعاري في البنية التصويرية، العلاقات المكانية والزمانية في اللغة وعلاقتها بالإدراك، اكتساب اللغة، العلاقة بين اللغة والإدراك الحسي.

اللغة Language:

تعريف اللغة:

اللغة نسق من الإشارات والرموز، يشكل أداة في المعرفة، وتعتبر اللغة أهم أدوات التفاهم والاحتكاك بين أفراد المجتمع في جميع ميادين الحياة، وبدون اللغة يتعذر نشاط الناس المعرفي، وترتبط اللغة بالتفكير ارتباطاً وثيقاً، فأفكار الإنسان تصاغ دوماً في قالب لغوي، حتى في حال تفكيره الباطني، فقط في اللغة تحصل الفكرة على وجودها الواقعي، واللغة ترمز إلى الأشياء المنعكسة فيها.

ويرى بعض الباحثين أن اللغة قدرة ذهنية مكتسبة يمثلها نسق يتكون من رموز اعتباطية منطوقة يتواصل بها أفراد مجتمع ما.

فاللغة: هي التعبير اللفظي، الذي يعبر به الإنسان، سواء بالنطق أو الكتابة، ويُعد التعبير اللغوي أكثر رقيماً من التعبير بالحركة (التعبير غير اللفظي)، واللغة وظيفة مكتسبة، لها أساس حركي وآخر حسي، والتوافق بينهما، يخرج الكلام سوياً، الذي هو اللغة المنطوقة، وإذا كانت اللغة المنطوقة هي أداة التواصل اللفظي بين البشر، فإن هناك لغة غير منطوقة، للتواصل غير اللفظي، وهي لغة الحركة والجسد، في صورة الإيماءات وتعبيرات الوجه، التي قد تكون مصاحبة للألفاظ، وقد تكون منفصلة، في أحيان أخرى، وعلى خلاف ما يتوقع الكثيرون، يشكل التواصل غير اللفظي حوالي ٨٠٪ من تواصل البشر، بينما يشكل التواصل اللفظي ٢٠٪ فقط، ويتضح ذلك من خلال الأمثلة الآتية:

١- عندما يطلب منك شخص شيئاً ما، وتجيبه بقولك حاضر، يختلف عما تجيبه بكلمة حاضر ماداً إياها، في لهجة متوعة، وممسكاً بأسفل ذقنك، فإن الرسالة التي ستنقل إليه هي التهديد، وهذا يختلف عن الرد السلس الأول، والسبب هو ما صاحبه من تواصل غير لفظي.

٢- عندما يكون شخص في مركب وسط الماء، وتحييه، فيناديك مع رد التحية بكلمة (تفضل)، فإنك تفهم أنه لا يعني ما يقول.

٣- عندما تداعب الأم طفلتها، التي تبلغ من العمر عامين، وتدغدغها، وهي مبتسمة قائلة: (غبية)، فإن البنت تضحك، لأنها تتجاهل اللفظ، وتتفاعل مع ما يصاحبه من تواصل غير لفظي.

ومن هذه الأمثلة، وكثير غيرها، توصل الدارسون إلى أن "التواصل غير اللفظي" Non-Verbal Communication أكثر قيمة، في تعاملنا اليومي، وإن كانت اللغة (أي الألفاظ) هي التواصل الأوحد في عملية الكتابة.

والألفاظ الواضحة الدلالة، والجمل ذات المعاني، المتفق عليها بين أفراد المجتمع، هي اللغة، بينما إخراج الحروف، من دون النظر إلى معناها، يعني الكلام، والأساس الحركي للكلام، يتكون من الحجرة والبلعوم والفم واللسان واليد، وما يتحكم فيهما من مراكز عليا، وهي منطقة التلغيف الجبهي الثالث،

[الصفحة ٧]

التي تقع عند التقاء الفص الصدغي الفص الخلفي من قشرة المخ، في نصف كرة المخ السائد، وتسمى منطقة بروكا (Broca's area)، نسبة إلى الجراح الذي اكتشفها وقشرة المخ الحركية، وليست هذه المراكز هي المسؤولة فقط عن سلامة وظيفة الكلام، ولكن يلزم توافق بين الفصوص الأربعة لقشرة المخ (الفص الأمامي والفص الخلفي والفص الصدغي والفص الجداري)، إضافة إلى سلامة الارتباط بين نصفي كرة المخ (الأيمن والأيسر).

أما الأساس الحسي، فيتكون من المناطق الحسية في قشرة المخ، والمرتبطة بالفهم والإدراك واختزان المعلومات، ويأتي الكلام كناتج لعملية التفكير، مستخدماً الألفاظ، التي ترمز إلى مفاهيم تم إدراكها واختزانها في الذاكرة.

ولقد نتج من وظيفة الكلام تكون لغات البشر المختلفة، واللغة هي مفردات (كلمات)، يتكون كل منها من أصوات أساسية، أو ما يسمى بالوحدات الصوتية، وتتركب هذه الكلمات معاً في جُمل، عبر عملية القواعد.

وكما أن اللغة نتاج وانعكاس للتفكير، فإن للغة دوراً مهماً في عملية التفكير، فالمعاني أو المفاهيم، التي يكتسبها الإنسان لا بد أن يرمز إليها برموز تمكنه من استخدامها في التفكير، والتعبير عنها، والرموز هي الكلمات أو الأعداد أو العلامات وتصبح هذه الرموز قوالب، تصب فيها المعاني حتى يمكن الاحتفاظ بها، ثم الإفادة منها، فالمعاني تظل حائرة في الذهن، حتى تستقر في رموز ملائمة فتثبت وتتبلور، ويسهل تذكرها واستخدامها في التفكير فمن دون اللغة يستحيل علينا الاحتفاظ بالمعاني أو توصيل هذه المعاني إلى الآخرين.

علاقة اللغة بالتفكير:

إن تحديد الروابط بين الكلام المسموع وبين الفكرة التي تدور في أفق النفس البشرية ما يزال يعتبر من أشد مباحث عام النفس واللغة تعقيداً وأكثرها طرافة في آن واحد، البحث في علاقة اللغة بالفكر ذات أهمية في فهم ليس فقط طبيعة ظاهرة التفكير بل أيضاً في فهم ظاهرة اللغة نفسها، وصلة الفكر اللغوي